الفصل الأول

حَيَاة الفُضَيل

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين، وبعد . .

فإننا كلما أخذنا فى دراسة حياة صوفى من الصوفية، تذكرنا ـ فى سرعة ـ الشِّبْلىَّ رحمه الله، وقد سُئل :

لِمَ سُميت الصوفية هذا الاسم ؟

فقال: لبقية بقيت عليهم من نفوسهم، ولولا ذلك لما لاقت بهم الأسماء، ولا تعلَّقت بهم.

لقد أحب الصوفية التخلص من الأسماء، ومن الأنيَّة. . لقد أحبوا أن يفنوا فى الله سبحانه وتعالى: أن يقوموا به، وأن يتخلّقوا بأخلاقه، وأن تفنى شخصيتهم فيه: فى إرادته، فى حبه، فى مرضاته. . أن يسترسلوا معه كما أحب، لا يكون لهم هوى فى غير شريعته، ولا تكون لهم إرادة فى غير ما أمر. . أن يذوبوا فى محيط الإطلاق.

وهم لذلك ينأون عن الحديث عن أنفسهم، ويبتعدون عن ذكر صفاتهم الخاصة، وأحوالهم الفردية.

ومن أجل ذلك: لا تكاد تجد تاريخاً شخصياً للصوفية، ومن هنا فإننا نكاد لا نجد تاريخاً شخصياً للفضيل بن عياض رحمه الله.

ونحن نكتب هنا كلمات يسيرة نستخلصها من هنا وهناك، مما روى عن حياته:

إنه: **أبو علىّ، الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمى.. ثم اليربوعى.**

إنه: عربى من قبيلة **تميم**..

ولد **بخراسان**، من ناحية مرو، بقرية يقال لها «**فُنْدين**[1]» وكان أبوه معروفاً.. لقد كان معروفًا بخشية الله والخوف منه.

يقول سفيان بن عيينة، العالم المشهور:

« **ما رأيتُ أحدًا أخوفَ لله منَ الفُضَيل وأبيه** ».

وأحب هذا الوالد المؤمن أن ينشأ ابنه على غراره.. ولكن هذا الابن لم يحقق رغبة أبيه فى بواكير شبابه.. فقد انحرفت به الحياة ـ فيما يبدو ـ فى عهد مبكر من حياته.

ولكن جو الاستقامة الذى نشأ فيه، وجو الإيمان الذى تفتحت عيناه عليه، كان كامناً فى نفسه، لم يزل أثره، فكانت حياة الانحراف التى عاشها فى العهد الأول من شبابه حياة عابرة، لفترة مؤقتة، ثم تغلّب عليها جوهر فطرته الطاهرة، وما لبث أن حصل له هذا الانقلاب المفاجئ الذى يهيِّئه الله سبحانه لمن أحب من عباده، فينتشلهم به من البعد عنه إلى القرب منه.

يقول الفضيل بن موسى، كما يروى صاحب كتاب «تهذيب التهذيب»:

---

(١) بضم الفاء وسكون النون ودال مكسورة: من قرى مَرْو.

« كان الفضيل بن عياض، شَطَّارًا يقطع الطريق بين أبيورد، وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقى الجدران إليها، إذ سمع تاليًا يتلو:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾[1]؟..

فلما سمعها قال:

«بَلَىَ يا ربِّ ـ قَدْ آن».

فرجع، فآواه الليل إلى خربة، فإذا فيها سابلة، فقال بعضهم: نرتحل. وقال بعضهم: حتى نصبح، فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا..

قال:

«ففكرتُ، فقلتُ: أنا أسعىُ اسْمِى بالليل فى المعَاصِى، وقومٌ مِنَ المسلمين يَخافُوننى هَا هُنا، وما أرى اللهَ سَائقى إليهم إلا لأرتدعَ.. اللهم إنِّى قد تبتُ إليك، وجعلتُ توبتى مجاورةَ البيتِ الحرام».

لقد سمع الفضيل النداء الإلهى يدوى من أعماق نفسه، وسمعه متجاوبًا مع التالى للقرآن الكريم، بل ربما لم يكن هناك تالٍ، وإنما هو التطلع الكامن فى نفس الفضيل إلى حياة التقوى والفضيلة، والطهر النفسى والوجدانى.

---

(١) سورة الحديد: ١٦.

وتاب الفضيل توبة خالصة لوجه الله. . . ولكنه لم يذهب إلى مكة مباشرة ، وربما كان ذلك هيبة من البيت الحرام، أن يدخله ولمَّا يتأهَّب لدخوله، بعد. .

وما من شك فى أن التوبة الخالصة، من كبريات المؤهلات لدخول البيت الشريف.

بيد أن الفضيل أحب أن يذهب إلى البيت وهو متسلِّح ـ مع الطهر ـ بالتوبة، وبالعلم. . إن هذا البيت قد زاد الله من تشريفه وتعظيمه، حينما اقتضت حكمته تعالى أن يجعله مكان البعثة المحمدية، حيث شهدت جدرانه محمداً ﷺ يطوف به، ويسير حوله، داعياً إلى الله وحده لا شريك له، منادياً: «**لا إله إلا الله**».

وكانت هذه الكلمة تزلزل قواعد الشرك ، وتقع غُصَّة فى قلوب المشركين. . وإن من حرمة هذا البيت ـ فيما يرى الفضيل ـ ألاَّ تَشُدَّ إليه الرحال، إلا وأنت على علم بما ينبغى أن تكون عليه فيه. . لابد ـ إذن ـ من العلم قبل الذهاب إليه.

أين يذهب ليتعلم، ولتكون توبته قائمة على أساس من المعرفة الصادقة، كما هى قائمة على أساس من الشعور النفسى الصادق ؟

لقد يَمَّمَ الفضيل وجهه شَطْرَ الكوفة.

يقول ابن سعد: « وقَدِمَ الكوفة وهو كبير ».

ولما حل الفضيل بالكوفة، أخذ ينهل من العلم نهلاً.

لقد أخذ يحضر نهاره على كبار أساتذة الحديث ـ على الخصوص ـ ويسهر ليله فى استذكار ما سمع وتعلم.

وكان الفضيل صاحب ذاكرة قوية، وفطنة نَفَّاذة.. وكانت عنده المؤهلات التى لا يَنْبُغُ المحدِّث إلا بها:

لقد كان قوىَّ الذاكرة ، بحيث يسهل عليه حفظ السند والمتن.. وكان فطنًا بحيث يتصرف فى مشكلات العلم بأسلوب ذكى، وكان مخلصاً لتراث أشرف الرسل صلوات الله وسلامه عليهم..

وكان متعطشاً للمعرفة حريصاً عليها،وكان حرصه لما رأى فى المعرفة من متعة ولذة.. ولأنه كان نادماً على فترة أمضاها فى البعد عن هذا الجو، فقد حرص حرصًا شديدًا على استدراك ما فاته..

وبرع الفضيل فى الحديث:

ونقله الحديث من جو التوبة الساذجة إلى جو التوبة التى شَفَّتْ بالحديث، وسَمَتْ بمعرفة كيفية المتابعة لرسول الله ﷺ .

لقد أصبحت توبته على بصيرة..

ووجَّهته هذه المعرفة، وهذه التوبة العارفة إلى العبادة بأسلوب المتابعة الدقيقة لرسول الله ﷺ ، ونَعِمَ بعبادته فاستغرق فيها، ونعم بالمعرفة فاستغرق فيها..

ثم لما رأى نفسه أهلاً للذهاب إلى مكة ، ومجاورة البيت الحرام؛ سافر إليها، واستقر فيها إلى أن مات بها فى أول سنة سبع وثمانين ومائة، عن نحو ثمانين سنة.. ودُفن بباب المصلَّى.

ولقد عاش الفضيل بعد توبته عيشة متزنة، فقد تزوج، وكان له أبناء، منهم: **ابنه « عليّ »** . وقد كان الفضيل مَعنياً به، يتتبع أخباره، ويوجّهه بطريق مباشر أو غير مباشر :

فمرة قيل له : إن علياً يقول : وددت أنى بمكان أرى الناس ولا يرونني . .

فقال : **« وَيْحَ عليّ ، أفلا أتمَّها فقال : لا أراهُم ولا يَرونني »** . .

ويبدو أن الفضيل رضي الله عنه رأى عليًا مرة فى زَهْو وفى كِبْر، فأخذ يحدّ من غَرَبه [1] ، ومما قاله له:

«لعلّكَ ترى أنك شيء؟ .. الجُعْلُ أطوعُ لله منك»..

وكان الفضيل يُكنى به، فيقال له: « يا أبا على » . .

وكان للفضيل ابن آخر هو **« أبو عبيدة »** . . وكان الفضيل يحبه، ويقول:

« إنى لأُحبُّه ، وأُحبُّه لأنه جاءنى على كِبَر » .

***

ويبدو أن الفضيل لم يكن ثرياً، وأن حياته ما كانت حياة رخاء . .

ولكن الذين يؤرِّخون له، يتحدثون عن خادم له . . ولقد روى هذا الخادم الكثير عن حياة الفضيل الدينية، وكان خادمًا عالماً اكتسب من

---

(١) أغْرَبَ : جاء بالشيء الغريب .

صحبة الفضيل الكثير من المعرفة: إنه **إبراهيم بن الأشعث**، الذى تفانى فى حب الفضيل وفى خدمته، والذى ندين له بكثير مما نعرف عن الفضيل..

ويبدو أن هذا الخادم العالم لم يكن الوحيد عند الفضيل..

فقد كان للفضيل جارية سوداء، هى التى قالت **لهارون الرشيد** - حينما كان عند الفضيل:

« يا هذا، لقد آذيتَ الشيخَ منذ الليلة، انصرفْ يرحمك الله »..

وكان للفضيل حمار يركبه.. وكان الفضيل يقول:

« إنى لأَعْصِى اللهَ فأعرفُ ذلكَ فى سوءِ خُلق خَادِمى وحِمَارى ».

ويذكر صاحب « صفة الصفوة » أنه كان يقول:

« أَصْلَحُ ما أكونُ، أفقرُ ما أكونُ، وإنِّى لأَعْصِى اللهَ فأعرفُ ذلكَ فى خُلق حِمَارى وخَادِمى »..

أى: أنه ربما صدر منه عمل ليس من أعمال المقرَّبين، صدر منه دون شعور به، ولا انتباه له، فيرجع إلى نفسه - حينما يرى سوء خُلق خادمه أو حماره - يحاسبها على ما فعلت ليستغفر ويتوب.

فإذا أردنا أن نعرف - الآن - مصدر الرزق فى حياة الفضيل، فإن الإمام الشعرانى رضي الله عنه يقول عن الفضيل:

« وكان رضي الله عنه يَسْقى على الدوام، وينفق من ذلك على نفسه وعياله ».

ويبدو أن الخادم أو الخدم ، إنما كانوا من أجل معونته على السَّقْى، ويبدو أن الحمار كان من أجل ذلك أيضاً.

والأمر المؤكَّد: هو أن الفضيل لم يكن مُترفاً فى حياته، وإنما كان يعيش من عمل يده، من كسب حلال طيب.

يقول ابن حِبَّان عنه :

« أقام بالبيت الحرام مُجاوراً، مع الجهد الشديد، والورع الدائم، والخوف الوافر، والبكاء الكثير، والتحلِّى بالوحدة، ورفض الناس، وما عليه من أسباب الدنيا، إلى أن مات بمكة ».

كان الفضيل يعيش على هذا النَّسَق، مع أن الدنيا كانت تُعرَض عليه فى صورة الآلاف من الدنانير، من الملوك والأمراء والأثرياء، هدايا، فيرفضها . . إنه يريد ألاَّ يقذف إلى جوفه إلا باللقمة الحلال، ويذكر فى ذلك قصة سعد رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ :

« عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : تليت هذه الآية عند النبى ﷺ :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [1] . . فقام سعد بن أبى وقاص ، فقال:

يا رسول الله : ادعُ الله أن يجعلنى مُستجابَ الدعوة.

فقال:

---

(١) سورة البقرة : ١٦٨ .

« يا سعدُ، أطبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُستجَابَ الدعوة، والذى نَفْسُ محمد بيده إنَّ الرَّجلَ ليقذفُ اللقمةَ الحرامَ فى جَوْفه، ما يُتَقَبَّلُ منهُ أربعينَ يوماً، وأيّما عبدٍ نَبَتَ لَحمُه من السُّحْتِ والرِّبا، فالنارُ أَوْلَى به » .

ويذكر ـ أيضاً ـ قوله ﷺ :

« يَا أيُّها الناس ! .. إنَّ اللهَ طيِّبٌ لا يقبلُ إلا طيِّبًا ، وإنَّ اللهَ أمرَ المؤمنينَ بما أمرَ به المرسَلين ، فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (١) .

وقال :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾(٢) .

ثم ذَكَرَ الرجلَ يُطيلُ السَّفرَ أشعثَ أغبرَ ومطعمُه حرامٌ ومَشربُه حرامٌ، ومَلْبَسُهُ حرامٌ وغُذِّى مِنَ الحَرَامِ ، يمدُّ يديهِ إلى السَّماءِ ، يا ربُّ يا ربُّ ، فأنَّى يُستجابُ لذلك »(٣) .

وكان الفضيل راضياً بحياته الفقيرة . .

---

(١) سورة المؤمنون : ٥١ .

(٢) سورة البقرة : ١٧٢ .

(٣) رواه مسلم، والترمذى وقال : حسن غريب .

إنه ـ على حَدِّ تعبيره ـ أصلح ما يكون . . أفقر ما يكون . .

بل، لقد كان الفضيل شاكراً لله سبحانه على هذه الشِّدة فى حياته . . ويرى أن ذلك فضل من الله عظيم . . إنه يقول:

«أَجَعْتَنى وأَجَعْتَ عيالى ، وتَركتَنى فى ظُلَمِ الليلِ بلا مِصْباحٍ، وإنَّما تفعلُ ذلكَ بأوليائك ، فبأىِّ منزلة نلتُ هذا منكَ ؟ .. ».

والتزم الفضيل ـ فى حياته ـ الشريعةَ التزاماً كاملاً، واقتدى برسول الله ﷺ اقتداءً تامّاً بقَدْر استطاعته . .

إنه يقول: « **اسلُك الحياةَ الطَّيِّبةَ: الإسلامَ والسُّنَّةَ** »، ولا تخرج الحياة الطيبة ـ فى نظره ـ عن ذلك . . إنها الاتِّباع . .

انظر ـ مثلاً ـ إلى موقفه من الفرائض والنوافل:

يقول إبراهيم بن الأشعث: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« لَنْ يتقرَّبَ العبادُ إلى الله بشىءٍ أفضلَ من الفرائضِ ..الفرائضُ رءوسُ الأموالِ ، والنوافلُ الأرباحُ »..

ويسير الفضيل ـ فى هذا ـ متناسقاً مع الحديث الشريف الذى يبيِّن كيفية القرب من الله، ويبيِّن السبيل إلى حب الله للعبد . . هذا الحديث الجميل الذى رواه الإمام البخارى رضي الله عنه ـ بسنده ـ عن أبى هريرة رضي الله عنه . . قال:

« إنَّ الله قال : مَنْ عَادَى لى وَلِيّاً فقد آذنتُه بالحربِ ، وما تقرَّبَ إلىَّ عبدى بشىءٍ أحبّ إلىَّ مما افترضتُه عليه ، وما يزال عبدى

يتقرَّبُ إلىَّ بالنَّوافل حتى أحبَّه ، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذى يَسمعُ به ، وبَصرَه الذى يُبصرُ به ، ويدَه التى يَبطشُ بها ، ورجْله التى يَمشى بها، ولئنْ سَألنى لأعطينَّه ، ولئن استعاذَ بى لأعيذنَّه ، وما ترددّتُ عن شىء أنا فاعلُه ، ترددُّى عَنْ نَفْسِ المؤمنِ ، يكرهُ الموتَ وأنا أكرهُ مَساءَتَهُ» .

وينصح الفضيل بالفرار من الناس إلى الله، فيقول:

«فِرَّ مِنَ الناسِ غيرَ تَاركٍ للجَمَاعة » .

ويحمل الفضيل على أصحاب البدع حملات متكررة ، يروى عنه عبد الصمد بن يزيد قوله:

«مَنْ أحبَّ صاحبَ بِدْعةٍ ، أحبطَ اللهُ عَمَلَهُ ، وأخرجَ نورَ الإسلامِ مِنْ قلبِه »..

ومن كلامه فى أصحاب البدع:

«مِنْ علاماتِ البَلاَءِ أنْ يكونَ الرجلُ صاحبَ بِدْعة» .

«نظرُ المؤمنِ إلى المؤمنِ جلاءُ القلبِ ، ونظرُ الرجلِ إلى صاحبِ البِدْعةِ يُورِثُ العَمَى » ..

«مَنْ أعانَ صَاحِبَ بِدْعةٍ ، فَقَدْ أعانَ على هَدْمِ الإسلامِ ».

«لا يرتفعُ لصَاحبِ بِدْعةٍ ـ إلى الله ـ عملٌ» .

«إذا رأيتَ مُبتدعًا فى طريقٍ ، فخذْ فى طريقٍ آخرَ » .

ويحث الفضيل ـ فى صورة نبيلة ـ على ألا يخوض الناس فى الصحابة، ويرى أن الخوض فيهم من البدع التى يبغضها الله تعالى، ويقول فى ذلك:

« إنى أحبُّ من أحبَّهم الله، وهم الذين يَسْلَمُ منهم أصحابُ محمد ﷺ ،وأُبغِضُ مَنْ أَبْغَضَهُ اللهُ ، وهم أصحابُ الأهواءِ والبِدَع » .

ويروى عبد الصمد بن يزيد، عن الفضيل ، قولاً يحدِّد ـ فى كثير من الزوايا ـ موقف الفضيل من أصحاب البدع، فيقول:

سمعت الفضيل يقول:

«لَئِنْ آكُلُ عندَ اليَهُودىِّ والنَّصْرانىِّ أحَبُّ إلىَّ مِنْ أن آكُلَ عندَ صاحبِ بِدْعةٍ ، فإنِّى إذا أكلتُ عندهما لا يُقتدَى بى ، وإذا أكلتُ عندَ صاحبِ بدعةٍ ، اقتدَى بى الناسُ » .

«أُحبُّ أنْ يكونَ بينى وبينَ صاحبِ البِدْعةِ حِصْنٌ من حديدٍ » .

« عَمَلٌ قليلٌ فى سُنَّة ، خيرٌ مِنْ عَملٍ صَاحبِ بِدْعةٍ » .

« مَنْ جلسَ مع صاحبِ بِدْعةٍ لَمْ يُعْطَ الحكمةَ » .

« ومَنْ جلسَ إلى صاحب بدعة فاحْذَرْهُ » .

« صَاحِبُ بِدْعة لا تأمَنْهُ على دِينكَ ، ولا تُشَاوِرْهُ فى أمْرِكَ ، ولا تجلسْ إليه ، فمَنْ جلسَ إليه وَرَّثَهُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ العَمَى» .

« إذا عَلِمَ اللهُ مِنْ رجلٍ أنه مُبْغضٌ لصاحبِ بدعة ، رجوتُ أنْ يغفرَ الله له ، وإنْ قلَّ عَمَلُه ، فإنى أرجو له .. لأن صاحبَ السُّنَّة يعرضُ كلَّ خيرٍ ، وصاحبَ البدعةِ لا يرتفعُ له ـ إلى الله ـ عملٌ ، وإنْ كَثُرَ عَمَلُه » .

قال: وسمعت الفضيل يقول:

«إنَّ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ملائكةً يطلبونَ حلَقَ الذِّكْر فانظرْ معَ مَنْ يكونُ مَجْلِسُكَ ؟ لا يكونُ معَ صاحبِ بدعةٍ ، فإنَّ الله تعالى لا ينظرُ إليهم » .

«عَلامةُ النِّفاقِ أنْ يقومَ الرجلُ ويقعدَ معَ صاحبِ بدعة» .

«أدركتُ خيارَ الناسِ ، كُلّهم أصحابُ سُنَّة ، وَهُمْ يَنْهَونَ عَنْ أصحابِ البدعةِ » .

قال: وسمعت فضيلاً يقول:

«إنَّ لله عباداً يُحيى بهم العبادَ والبلادَ ، وَهُمْ أصحابُ سُنَّة» .

أمـا موقف الـفضـيل من السلف، فـهـو موقف رجل الـشريعـة الصادق:

عن حسين بن زيد قال: سمعت فضيلاً يقول:

«ما علَى الرجُـل إذا كانَ فيـه ثلاثُ خصَال، إذا لَـمْ يَكُنْ صَاحِبَ هَوًى، ولا يَشْتُمُ السَّلَفَ، ولا يُخَالِطُ السُّلْطَانَ».

وقال مؤمل بن إسماعيل: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« إذا نظرتُ إلى رجلٍ من أصْـحَاب أهل البيت، كـأنِّى نظرتُ إلى رجلٍ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ ».

وذُكِرَ الصحابة عند الفضيل فقال:

«اتَّبِـعُوا ـ فَـقَدْ كُـفِيْـتُمْ ـ: أبا بكر الصـديق، وعمـر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب ». رضي الله عنهم أجمعين.

وبعد.. فلقد سارت حياة الفضيل على هذا النَّسَق:

توبةٌ خالصةٌ نَصُوح، حياةٌ ماديةٌ مُـجْهِدة، ولكنها راضيةٌ حامدة، اتِّباعٌ دقيقٌ لسُنَّة رسول الله ﷺ، وبُغْضٌ واضحٌ لأصحابِ البدع.

***